

الرفق بالحيوان مظهر من مظاهر الحضارة والمدنية في الإسلام

د/ خالد الهادي الفلاح (*)

المقدمة:

بسم الله أبتدئ وعلى الله أتوكل فهو حسبي ونعم الوكيل. وبعد:

ليس من الغريب أن يكون الإسلام قد سبق الحضارات في التعرض لهذه القضية وهى الرفق بالحيوان كما سيأتي ؛ فهو دين الأمن و السلام الذي ينعم كل شيء في ظله بالأمان.

ولكن الغريب حقاً أن لا تجد هذه المبادئ التي دعا إليها الإسلام على أرض الواقع، حتى يصبح الكلام فيها غريباً وليس لائقاً بالمسلمين هذه القضية كغيرها من القضايا الأخرى (حماية البيئة، وحرية المرأة والشورى، حقوق الإنسان، والمساواة بين الناس، ، ونبذ التفرقة والعنصرية ...) وغيرها كثير ، ركز عليها هذا الدين وأعطاهها مساحة غير قليلة من تعاليمه السمحة ؛ لكن الجهل بهذا الدين، والبعد عنه، والحروب التي يواجهها في داخل دوله وخارجها هي التي حالت بين أبنائه وبين تطبيق هذه التعاليم حتى أظهرها غيرنا وتفاخر بها علينا ووصفنا نحن بالتخلف لأنه لم ير لها وجوداً في حياتنا ، ولا لوم عليهم ؛ إنما لومنا على أنفسنا، فمن طمس

(*) أستاذ مساعد - قسم الدراسات الإسلامية - جامعة الزيتونة - ليبيا .

نور عينيه وأطفأ مصباحه الوهاج فقد ظلم نفسه وحكم عليها بالسير في دياجير الظلام (ومن لا يكرم نفسه لا يكرم) (١).

وهذا البحث يعتبر مساهمة من الباحث لإلقاء الضوء على جانب من هذه الجوانب المهمة التي تمس حياة الناس وهم يعيشون الحضارة والمدنية والرقى فغير لائق بالإنسان المسلم وهو يدعي الحضارة والمدنية أن يكون قاسياً جباراً مع الحيوان الأعجم الذي وهبه الله له وسخره لخدمته وإسعاده بشكل أو بآخر ، ثم إن المسلم غالباً ما يقع في دائرة الحرام أو المكروه على الأقل وهو يسيء إلى الحيوان ويخالف تعاليم ربه ونبيه ﷺ مما يحتم على المتخصص تنبيهه وبيان حدود الله له في هذا الموضوع وسوف نقرأ حديث النبي ﷺ الذي ذكر فيه أن امرأة دخلت النار بسبب الإساءة إلى حيوان ضعيف ... ومن جانب آخر فإن الإحسان إلى الحيوان والرفق به سوف يكون سبباً في دخول الناس الجنة كما ذكر النبي ﷺ وهذا البحث سيبين بوضوح أن الإسلام سبق غيره لهذا المبدأ العظيم ، وكان فعلاً دين الأمن والسلام للإنسان والحيوان على حد سواء..

لقد رأينا الكثير من المسلمين يستخدمون الحيوان في النقل أو الحراثة أو غير ذلك يعاملون هذه الحيوانات بغلظة وقسوة، نتيجة الجهل بالدين والبعد عنه، ورأينا البعض يقف متعجباً من أمر الإسلام بقتل بعض الحيوانات كالوزغ (سام أبرص) أو الحية أو الفأر ... مما يبدو في ظاهره قسوة وعنفاً ... بل وجدنا البعض من المسلمين المتأثرين بالغرب يستنكر فكرة ذبح الحيوان لاسيما في عيد الأضحى ، حيث يقوم بذلك عدد كبير من المسلمين، ويعتبره اعتداء على هذا المخلوق الذي خلق ليعيش... وغير ذلك من الأمور التي تحتم على الباحث المسلم أن يجمع جزئياً هذا الموضوع ويخرج الصورة الواضحة له على أكمل وجه وأبينه.

المطلب الأول

المقصود بالرفق بالحيوان :

كلمة الرفق: بكسر الراء وفتحها وضمها - في لغة العرب ضد العنف (٢) ومعناها اللين في المعاملة والإحسان إلى الناس والحيوان ... وهذا المعني أمر به الله سبحانه وتعالى في كثير من الآيات ، وأمر به النبي ﷺ في كثير من الأحاديث بهذا اللفظ وغيره من الألفاظ ،

قال تعالى : ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشَّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء/٦٩] ، ففي هذه الآية يبين المولى عز وجل أن هذه الصفوة من عباد الله وهم الأنبياء والصديقون والشهداء والصالحون ، أحسن الناس رُفقةً ، لأنهم أنفع الخلق وأفضلهم والرفق الذي اتصفوا به ومُدحوا من أجله عامٌ مع جميع مخلوقات الله سبحانه كما سنبين في المباحث القادمة.

وقال تعالى : ﴿ خذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩] ، وقال تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل: ١٢٥] ، وقال تعالى : ﴿ فِيمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَكَوْنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَفْضُوهُنَّ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ عَلَى اللَّهِ إِنْ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩] ، وقال تعالى مخاطباً موسى وأخاه هارون : ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ [طه ٤٤] ، وغيرها كثير من الآيات التي أمرت بالإحسان واللين والرفق في القول والعمل حتى مع الأعداء ، فقد أمر الله

ألا يتجاوز معهم الحد في العقوبة فقال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ [النحل/ ١٢٦] وكذلك أحاديث النبي ﷺ تعاضدت وأكدت على هذه المعاني وأمرت بالرفق والإحسان بالإنسان والحيوان والنبات ... من ذلك قوله ﷺ " إن الله رفيق يحب الرفق ويعطي عليه ما لا يعطي على العنف" (٣)، فهذا الحديث أعطى ثلاث ميزات للرفق، أنه من صفات الله سبحانه، وأنه يحبه، وأنه يعطي عليه ويثيب ما لا يعطيه على العنف. وقال ﷺ " من يحرم الرفق يحرم الخير كله" (٤) وهذا يبين أن الرفق هو الخير كله ولا خير فيما سواه. وقال ﷺ " إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ولا ينزع من شيء إلا شانه" (٥) . وستأتي كثير من الأحاديث عند الاستشهاد على الرفق بالحيوان.

والحيوان معروف منه الإنسي الأليف الذي يعيش مع الإنسان ومنه الوحشي الذي يعيش في الصحاري والغابات... ومنه البري والبحري والحشرات...

وسياتي أن الإسلام أمر بالرفق بجميعها... فالمقصود بالرفق بالحيوان عدم تعذيبه أو تجويعه وتعطيشه، أو قتله بدون داع أو اللجوء به بشكل فيه إذابة له...

وفي هذا المعنى وهو الرفق بالحيوان على وجه الخصوص يأتي الحديث الذي رواه المقدم بن شريح بن هاني قال: " ركبت عائشة بعيراً فكانت فيه صعوبة فجعلت ترده فقال رسول ﷺ "عليك بالرفق" (٦) .

فهنا استعمل النبي ﷺ لفظ الرفق في التعامل مع الحيوان الذي سخره الله للإنسان كما سياتي في حديث الجمل الذي شكاه للنبي ﷺ أنه قال لأصحابه "أحسنوا إليه حتى يأتيه أجله" فاستعمل لفظ الإحسان في التعامل مع الحيوان

الرفق بالحيوان مظهر من مظاهر الحضارة والمدينة في الإسلام

الذي هو جزء من هذا الكون الذي سخره الله للإنسان، قال ﷺ "إن الله كتب الإحسان على كل شيء" وسيأتي تخريج هذا الحديث في موضعه، وبيان كيف أمر فيه النبي ﷺ بالإحسان إلى الحيوان حال ذبحه، والرفق به في ذلك.

المطلب الثاني

ذكر الحيوان في القرآن

نزل القرآن الكريم على النبي ﷺ في جزيرة العرب، وكانت هذه الأمة تتعامل مع الحيوان شأنها شأن غيرها من الأمم في ذلك الوقت، وكانت الصلة وثيقة بين العرب وبعض الحيوانات وقتها، وقد لا تقل عن الصلة بين بعض البشر فيما بينهم.

فكانت الخيل والإبل والحمير والأغنام والكلاب والقطط والصقور من الحيوانات التي ألفها العرب وربوها واستخدموها في حياتهم البدوية، فكان الفارس العربي لا يستغني عن الفرس في قتاله وسفره؛ لذلك امتلأت قصائد شعرهم بذكر الخيول ووصفها ومدحها، كقول امرئ القيس:

مِكْرٌ مِقْرٌ مُقْبِلٌ مُدْبِرٌ مَعَاً كَجَلْمُودٍ صَخْرٍ حَطَّه السَّيْلُ مِنْ عَلٍ (٧)

وكقول عنتر بن شداد:

فازورٌ من وقع القنا بلبانه وشكا إلى بعبرة وتحمم

لو كان يدري ما المحاورةُ اشتكى ولو كان لو علم الكلام مكلمي (٨)

وكانوا يربون الكلاب ويعجبون لوفائها ويضربون بها الأمثال، ويفضلونها أحياناً على الإنسان إذا كان خائناً، قال شاعرهم:

وللكلب خير من خليل يخونني وينكح عرسي بعد وقت رحيلي
سأجعل كلبى ما حبيت منادمي وأمنحه ودي وصفو خليلي (٩)

وكانوا لا يعيشون بدون الإبل والغنم لأنها مصدر الغذاء
بالنسبة لهم فمنها اللحم واللبن والسمن ومنها الجلد والصوف والوبر
الذي يقيهم حر الصيف وبرد الشتاء قال امرؤ القيس:

ألا إن لم تكن إبل فمعزى كأن قرون جلتها العصي
فتوسع أهلها أقطاً وسمناً وحسبك من غنى شبع وري (١٠)

وقد امتلأت لغتهم بالأمثال الكثيرة التي ضربوها بالحيوان، وهذا يدل
على مكانتها في حياتهم ونفوسهم.

ولما جاء القرآن تكلم عن هذه الحيوانات بطرق مختلفة، فأحياناً يذكر
الناس بأنها من نعم الله العظيمة التي أنعم بها عليهم وسخرها لهم ليستفيدوا
من لحمها ولبنها وصوفها وجلدها وظهرها... قال تعالى: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا
لَكُمْ فِيهَا بَفءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [النحل/٥] وهذا ذكر لنعمة اللحم
والصوف والجلد...

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامَ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ
بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ [النحل/٦٦].

وقال تعالى: وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَرِيشَةً يُحَرِّصُهَا عَلَيْهِمْ يُخَفِّصُهَا عَلَيْهِمْ وَرِيشَةً يُحَرِّصُهَا عَلَيْهِمْ يُخَفِّصُهَا عَلَيْهِمْ
[النحل/٨].

وقال تعالى: ﴿يُخْرِجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل/٦٩].

الرفق بالحيوان مظهر من مظاهر الحضارة والمدنية في الإسلام

وقال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسْكَاءَ لِيُذَكَّرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَالْهَكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ [الحج/٣٤].

بل إن الله تعالى أحل للمسلم ما تمسكه من الصيد بشرط أن يكون مذبذباً على ذلك فقال تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلْ أَحَلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ يَعْلَمُونَ هُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [المائدة/٤]. وأحياناً يأمر بأخذ العبرة والعظة منها ومن خلقها وتحملها للصعاب وتسخيرها للإنسان وهي أقوى منه أو لضعفها أو لدقة عملها.

قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية/١٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [البقرة/٦٧]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة/٢٦].

وقال تعالى: ﴿كَمَثَلِ الْعَنَكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنَكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت/٤١]. وقال تعالى ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ وَمِنَ الشَّجَرِ مِمَّا يَغْرِشُونَ﴾ [النحل/٦٨]. وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل/١٨-١٩].

وقال تعالى على لسان الهدهد: ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [النمل/٢٢].

وغير هذه الآيات التي ذكر فيها الحيوان، ودلت على وجود حظ غير قليل من الاهتمام بالحيوان في الشريعة الإسلامية لوجود صلة شرعية محترمة بين الإنسان والحيوان، وإذا كانت هذه الصلة موجودة ومحترمة من قبل فلا بد لها من ضوابط تحكمها وتنظمها وتبين حدودها، وهذا ما سيتبين من خلال المطالب القادمة في هذا البحث.

المطلب الثالث

الخطوات والوسائل التي اتخذها الإسلام للرفق بالحيوان

١- الحرص على إطعامها وسقيها: لقد بين النبي ﷺ وأكد في كثير من الأحاديث على ضرورة الاهتمام بالحيوانات المحبوسة عند الإنسان، وعلى مسؤوليته التامة عليها من حيث إطعامها وسقيها والاعتناء بها، وأن من قصر في ذلك فسوف تلحقه العقوبة من الله تعالى.

فعن سراقه بن جعشم قال : سألت رسول الله ﷺ عن ضالة الإبل تغشى حياضها قد لظتها - أي بنيتها - فهل لي من أجر إن سقيتها؟ قال: "نعم في كل ذات كبد حرى أجر". وحرى : أي شديد الحرارة من العطش (١١).

فانظر إلى هذا الحديث فقد سئل النبي ﷺ عن الإبل الضالة هل يلحق صاحب الحياض أجرًا إن سقاها ، فأخبر ﷺ بأن الأجر لا يناله بسقي الإبل فحسب ، بل بسقي كل حيوان شديد العطش ، وهذا من حسن الإجابة، حيث أجاب بما يفيد السائل وغير السائل.

وعن نافع عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: غُذبت امرأة في هرة سجنتها حتى ماتت فدخلت النار ، لاهي أطعمتها وسقتها إذ سجنتها ،

الرفق بالحيوان مظهر من مظاهر الحضارة والمدنية في الإسلام

ولاهي تركتها تأكل من خشاش الأرض" (١٢) روى هذا الحديث الإمام مسلم وترجم لهذا الباب بـ (النهي عن تعذيب الحيوان).

فانظر كيف حكم الله سبحانه بالعذاب ودخول النار على هذه المرأة لأنها عذبت هرة بمنع الطعام والشراب عنها ، إنه حقاً دين الرفق بالإنسان والحيوان على حد سواء.

تري ماذا يقال لمن يغفلون عن العسافير المسجونة في الأقفاص بدون طعام ولا شراب ، أو أسماك الزينة في حياضها ، والتي تنتظر غذاءها من صاحب البيت فإذا تأخر عنها تألمت أو ماتت من الجوع. أو من يربي الأغنام والأبقار الكثيرة وليست لديه القدرة على سد احتياجاتها من الأكل فيلحقها الألم والضعف نتيجة الجوع ويلحقه هو الإثم لما سببه لها من عذاب.

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "إذا سافرتُم في الخصب فأعطوا الإبل حضها من الأرض ، وإذا سافرتُم في السَّنة فأسرعوا عليها المسير ، وإذا عرستم بالليل فاجتنبوا الطريق فإنها مأوى الهوام بالليل" (١٣)، والخصب هو الأرض المعشبة الخصبة والسَّنة عكس ذلك أي الأرض الفقيرة من العشب ، وعرستم : أي أقمتُم.

قال النووي في شرحه لهذا الحديث: ومعنى الحديث الحث على الرفق بالدواب ومراعاة مصلحتها فإن سافروا في الخصب قللوا السير وتركوها ترعى في بعض النهار وفي أثناء السير فتأخذ حضها من الأرض بما ترعاه منها ، وإن سافروا في القحط عجلوا السير ليصلوا المقصد وفيها بقية من قوتها ولا يقللوا السير فيلحقها الضرر لأنها لا تجد ما ترعى

فتضعف وربما كلت وعجزت عن المسير وقد جاء في أول هذا الحديث "إن الله رفيق يحب الرفق".

وعن عبدالله بن جعفر قال في حديث طويل : "... فدخل - أي رسول الله ﷺ - حائطاً لرجل من الأنصار فإذا جمل ، فلما رأى النبي ﷺ حنّ وذرفت عيناه ، فأتاه النبي ﷺ فمسح ذفراه - أي ما وراء أذنيه - (١٤) ، فسكن ، فقال : من رب هذا الجمل ؟ فجاء فتى من الأنصار فقال : لي يا رسول الله ، فقال : أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها ، فإنه شكا إلي أنك تجيعه وتدئبه" (١٥) أي تتعبه. وفي رواية أنه ﷺ قال لهم : "بيعونيه ، قالوا : لا بل هو لك يا رسول الله ، قال : أما لي فأحسنوا إليه حتى يأتيه أجله..." (١٦).

فانظر كيف كان النبي ﷺ رفيقاً رحيماً بهذا الجمل ، وهو قدوة الناس جميعاً ، وكيف أمر صاحبه بالرفق به ، وذكره أن الله ملكه إياه وعليه أن يشكر ربه على ذلك ويحسن إلى هذه البهيمة.

إن أهم غريزة يتمتع بها الحيوان هي غريزة الأكل والشرب وبالتالي فتوفير الطعام والشراب أهم الحقوق التي ينبغي أن تعطي للحيوان الذي خلق ليعيش ، لا سيما إذا كان هذا الحيوان مملوكاً للإنسان ومحبوساً عنده لا يستطيع أن يسعى لتحصيل رزقه.

ولقد تجاوز الإسلام هذه المرحلة بأن أمر بإطعام الحيوان الوحشي إذا اشتد جوعه كالذئب وغيرها من الوحوش ، إنه بذلك يسبق العالم المدني الحديث الذي أقام المحميات الطبيعية لحماية الحيوان والنبات ، إنه يكفل لحيوان مفترس جائع حق الحياة بهذه التعاليم السمحة.

فعن شمر بن عطية عن رجل من مزينة أو جهينة قال : صلى رسول الله ﷺ الفجر فإذا هو بقريب من مائة ذئب مدافعين وفود الذئاب ، فقال رسول الله ﷺ ترضخوا لهم شيئاً من طعامكم وتأمنون على ما سوى ذلك ، فشكوا - أي الناس - إلى رسول الله ﷺ الحاجة ، قال فأذنوهم ، قال : فأذنوهم ، فخرجن ولهن عواء)) (١٧) . ومعنى آذنوهم أي أعلنوا لهم عجزكم عن إطعامهم وتبرأوا من عداوتهم أو استعدوا للقائهم .

وإذا كان صحابة رسول الله ﷺ لم يعطوا هذه الذئاب شيئاً لحاجتهم لما لديهم من طعام وخوفهم من الجوع والهلاك فإن أمر النبي ﷺ ينبغي تطبيقه عند إمكانية ذلك ، وهذا ما فعله المسلمون في العصور اللاحقة عندما توفر لهم الطعام والشراب ، فكانت بعض الأوقاف ، وهي أموال يتبرع بها بعض المسلمين . تجعل للكلاب وما شابهها لإطعامها وسقيها والمحافظة على حياتها التي وهبها الله لها ، كيف لا والنبي ﷺ يقول في الحديث : "لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها كلها ، ولكن اقتلوا منها كل أسود بهيم (١٨) ، قال سعيد بن عامر : "البهيم الأسود كله" (١٩) .

ولعل في قتل الأسود علة وحكمة ، وهي أنه مما تتلبسه الجن المؤذية ، فالكلاب الضالة مع ما فيها من إيذاء وضرر ؛ حيث تعتدي على أموال الناس وتأكل أغنامهم ، وكذلك تنقل الأمراض والأوبئة ، وتروّع الأطفال والنساء ... ، ولكن مع ذلك لم يأمر النبي ﷺ بقتلها لأنها أمة من الأمم ، خلقها الله وأوجدها ، فيقدر ما فيها من ضرر فإن في وجودها نفعاً للناس لتوازن النظام البيئي الذي خلقه الله بالقسطاس والميزان .

٢- عدم تكليف الحيوان ما لا يستطيع من العمل:

سخر الله سبحانه الحيوان للإنسان يركبه وينقل عليه متاعه ويحرث عليه ويخرج به الماء ويطحن به الجبوب وغيرها... ، وهذا من عظيم نعم الله سبحانه على الإنسان الضعيف الذي لا يستطيع أن يقوم بكثير من الأعمال وحده، كما إنه لا يقوى على مواجهة هذه الحيوانات لولا فضل الله سبحانه الذي سخرها للإنسان ومكّنه من قيادتها وتسخيرها.

وقد علمنا الله سبحانه دعاء جميلاً نقوله إذا ركبنا أيّ دابة لكي نتذكر نعمة الله عز وجل قال تعالى ﴿لَتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَ تَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ [الزخرف/١٣].

لكن الإنسان في كثير من الأزمنة والأمكنة قسا على الحيوان وكلفه فوق طاقته ، وحمله بما ينوء به كاهله ، واستغله أشنع استغلال ، وقد رأينا في بعض البلاد الإسلامية أناساً يستخدمون الحمير والخيول أشنع استخدام في نقل البضائع ومواد البناء في حمولات تعجز عن نقلها الشاحنات ، وعندما يعجز الحيوان المسكين عن نقلها ينهال عليه صاحبه ضرباً ، فيجمع عليه التعب والضرب ، وكثيراً ما نرى بعض المارة يشفقون على الحيوان فيعينونه على تجاوز عقبة حال دون تجاوزها حمل ثقيل، الأمر الذي يدعو بعد الشفقة إلى التساؤل :هل الذي يقوم بهذا العمل مسلم يقرأ القرآن ويستمع لتوجيهات الخطباء والأئمة.الذين تبين رأي الإسلام في هذه المسألة؟! تالله لو رأى هذه المواقف غير المسلمين - وكثيراً ما يرونها - لحكموا علينا بالغلظة والقسوة وعلى ديننا بالإرهاب والبعد عن الرأفة والرحمة...

الرفق بالحيوان مظهر من مظاهر الحضارة والمدنية في الإسلام

للأسف إن الدعوة ليست متوقفة على جهود الدعاة والعلماء ؛ بل تتعدى ذلك إلى تصرفات وأخلاق ومعاملات المسلمين، فعندما كان المجتمع المسلم يطبق الإسلام بتعاليمه السمحة كانت مهمة الدعاة سهلة وجهودهم موفقة، أما في مثل هذه الظروف فلا شك أن الأمر في غاية الصعوبة. فما يبنيه الدعاة يهدمه العوام بتصرفاتهم الرعناء وصدق من قال :

متى يبلغ البنيان يوماً تماماً
إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم
ومن قال :

فلو ألف بانٍ خلفهم هادم كفى
فكيف ببانٍ خلفه ألف هادم

ليس من الغريب أن نجد الكثير من الأحاديث النبوية التي نهت عن تكليف الحيوان ما لا يستطيع ... كقوله ﷺ "بينما رجل يسوق بقرة له حمل عليها، التفتت إليه البقرة وقالت له : إني لم أخلق لهذا ، ولكني إنما خلقت للحرث، فقال الناس : سبحان الله - تعجباً وفرحاً - أبقرة تكلم ؟! فقال رسول الله ﷺ فإني أؤمن به وأبو بكر وعمر (٢٠).

ففي هذا الحديث يوجه النبي ﷺ أصحابه إلى عدم تكليف الحيوان ما لا يتناسب مع طبيعة خلقته واستغلاله فيما خلق من أجله.

وقد تقدم حديث الجمل الذي اشتكى النبي ﷺ أن صاحبه يجيعه ويدئبه - أي يتعبه في العمل - ونهى النبي ﷺ صاحب هذا الجمل عن هذا الفعل، ومر رسول الله ﷺ ببيعير قد لصق بطنه بظهره فقال : "انقوا الله في هذه البهائم المعجمة، فاركبوها صالحة وكلوها صالحة" (٢١).

وقد فهم صحابة رسول الله ﷺ هذه الدعوة للرفقة بالحيوان وعدم تكليفه ما لا يستطيع فكانوا أرق الناس بها ، عن أنس رضي الله عنه قال : "كنا إذا نزلنا منزلاً لا نسبح حتى نحلّ الرجال" قال الإمام النووي: لا نسبح أي لا نصلي النافلة، ومعناه أنهم مع حرصهم على الصلاة لا يقدمونها على حطّ الرجال وإراحة الدواب. (٢٢).

٣- عدم التفريق بينها وبين أبنائها الصغار.

إن عاطفة الأمومة والأبوة موجودة في الحيوان كما هي موجودة في الإنسان ، وقد احترّم الإسلام هذه العاطفة ، وهذه الرحمة ، بل إن الرسول ﷺ اتخذها وسيلة لوعظ أصحابه وتذكيرهم برحمة الله سبحانه لعباده المؤمنين، فلا ينبغي للإنسان أن يتجاهل هذه العاطفة ويهجم على الحيوان المرضع وما في حكمه وينزع منه أبنائه بدون شفقة ولا رحمة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول "جعل الله الرحمة مائة جزء ، فأمسك عنده تسعة وتسعين وأنزل في الأرض جزءاً واحداً ، فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه" (٢٣).

وعن عبدالله بن عمر قال : كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فانطلق لحاجته فرأينا حُمرةً - نوع من الطيور - معها فرخان فأخذنا فرخيها فجاءت الحمرة فجعلت تعرش، فجاء النبي ﷺ فقال : من فجّع هذه بولدها؟ ردوا ولدها إليها" (٢٤).

نقد اعتبر النبي ﷺ أخذ هذين الفرخين من أمهما فجيرة كبيرة لها وأمر برد فرخيها لتهوين مصيبتها ، إنه لدرس عملي كبير أراد النبي ﷺ أن يعيه أصحابه الكرام.

الرفق بالحيوان مظهر من مظاهر الحضارة والمدنية في الإسلام

"وأقبل رجل في كساء وفي يده شيء قد التفت عليه ، فقال يا رسول الله :إني لما رأيته أقبلت إليك فمررت بغيطه شجر فسمعت منها أصوات فراخ طائر فأخذتهن فوضعتهن في كسائي فجاءت أمهن فاستدارت على رأسي فكشفت لها عنهن فوقعت عليهن فلففتهن بكسائي فهن أولاء معي ، قال: ضعهن عنك، فوضعهن وأبت أمهن إلا لزومهن ، فقال رسول الله ﷺ: لأصحابه :أتعجبون لرحم أم الأفراخ فراخها ؟ قال : فو الذي بعثني بالحق الله أرحم بعباده من أم الأفراخ فراخها، ارجع بهن حتى تضعهن من حيث أخذتهن وأمهن معهن"قرجع بهن"(٢٥).

لقد جاء هذا الرجل بهذه الأم وفراخها للنبي ﷺ لعله يذبحها ويأكلها لا سيما وأنهم كانوا يعيشون في شدة وجوع ، لكنه ﷺ شغلته الرحمة بهن لما رأى رحمة أمهن بهن، وأراد أن يستغل هذا الموقف في التأكيد على صفة الرحمة التي هي من أجل صفات الخالق جل جلاله ، ثم أمر برد الفراخ وأمهن لمكانهن ليكون نتيجة لهذا الدرس العظيم ، وتأثراً بهذه الرحمة اللامتناهية ، وطمعاً في رحمة الله عز وجل لأنه من لا يرحم لا يرحم.

قارن بين هذا المشهد المؤثر وبين ما يفعله أصحاب البنادق اليوم الذين لا يفرقون بين كبير وصغير وكثيراً ما يفجعون الأمهات بصغارهن ، أو يقتلون الصغار في أعشاشهن جوعاً بقتل أمهاتهن ، لقد أدى الصيد الجائر إلى القضاء على كثير من أنواع الطيور والحيوانات، أو تتفیرها إلى أعماق الصحراء حتى تتجو من بنادق الصيادين اللاهين الذين لا يصيدون لجوعهم ، بل لملء فراغهم وإرضاء شهواتهم فتهرب من القتل إلى الجوع والحرّ وينطبق عليها قول الشاعر : كالمستجير من الرمضاء بالنار..

ولهؤلاء وأمثالهم قال ﷺ "من قتل عصفوراً بغير حقه سأل الله تعالى عنه يوم القيامة . قيل وما حقه ؟ قال : أن تذبحه فتأكله" (٢٦).

ولا شك أن جعله الأكل شرطاً للقتل يرجع إلى أن الصياد يكون جائعاً محتاجاً لهذا الطعام وليس من قبيل اللهو والترف، ولهؤلاء وأمثالهم قال ﷺ في الحديث الذي رواه أبو هريرة أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً يتبع حمامة فقال : "شيطان يتبع شيطانة" (٢٧). إذ يحمل هذا على من ضيع وقته في اللهو وقتل الحيوانات دون حاجة لذلك.

٤- النهي عن إيذاء الحيوان باتخاذهِ غرضاً وهدفاً للرمي:

لعل من المبالغة في إثبات المقدرة والتفوق في الرمي أن يلجأ المتسابقون إلى اتخاذ حيوان هدفاً لنبالهم أو بنادقهم، لتكون إصابته أكثر إثباتاً على المقدرة على الرمي وأكثر متعة أيضاً... لكن الشرع الحنيف لم يسكت عن هذا العبث، ولم يرض بهذا اللهو فكان النبي ﷺ وصحابته الكرام بالمرصاد لهؤلاء وأمثالهم.

فعن هشام بن زيد قال: دخلت مع أنس على الحكم - يعني ابن أيوب - فإذا أناس يرمون دجاجة في دار الأمير فقال: نهى رسول الله ﷺ أن تُصَبَّر البهائم" (٢٨).

وعن عبدالله بن جعفر قال: مرّ رسول الله ﷺ على أناس وهم يرمون كبشاً بالنبل فكره ذلك، وقال: (لا تمتثلوا بالبهائم) (٢٩).

وقد وصل هذا النهي إلى درجة لعن من يفعل ذلك، واللعن الطرد من رحمة الله - عز وجل - فمن لم يرحم الحيوان المسكين لا يستحق رحمة الله سبحانه في شريعة الإسلام الخالدة العادلة، " عن سعيد بن جبيرة قال: مرّ ابن

الرفق بالحيوان مظهر من مظاهر الحضارة والمدينة في الإسلام

عمر بفتيان من قريش قد نصبوا طيراً وهم يرمونه وقد جعلوا لصاحب الطير كل خاطئة من نبلهم فلما رأوا ابن عمر تفرقوا، فقال ابن عمر: من فعل هذا؟ لعن الله من فعل هذا إن رسول الله ﷺ لعن من اتخذ شيئاً فيه الروح غرضاً (٣٠)، وقد روي هذا الحديث عن الكثير من الصحابة رضي الله عنهم فتأخذ هذه الأحاديث في مجموعها التواتر المعنوي الذي يفيد اليقين من نهى النبي ﷺ عن تعذيب الحيوان بهذه الطريقة، وهذا منتهى الرفق بالحيوان.

أين هذه الدعوة مما يفعله بعض الناس اليوم الذين يجرون المسابقات بين الصقور المدربة وكلاب الصيد، وذلك بإطلاق بعض الحيوانات كالأرانب والقطط ... ليُعرف أي الصقور أو الكلاب أقدر على صيدها والفتك بها ،، لاشك أن هذا الفعل يدل على قسوة القلب وقلة الرحمة.

٥- تحريم أكل شيء منها وهي حية أو وسمها أو ضربها في وجهها.

كان من عادة الناس قبل الإسلام أنهم يلجأون إذا جاعوا إلى اقتطاع جزء من الحيوان وهو حيٌّ أو يستنزفون جزءاً من دمه ويطبخونه ويأكلونه، ومعلوم أن هذا العمل يؤذي الحيوان ويؤلمه ويلحق الضرر والضعف به، فنهى عنه النبي ﷺ واعتبره بمثابة أكل الميتة، "عن أبي واقد الليثي قال: قدم رسول الله ﷺ المدينة والناس يجبون أسنمة الإبل، وإليات الغنم، فقال رسول الله ﷺ (ما قطع من بهيمة وهي حية فهو ميتة) (٣١)، وأسنمة الإبل شحمها الذي يكون فوق ظهرها، وإليات الغنم الشحم الذي يكتنز حول نيل الشاة من الغنم، قد اعتبره النبي ﷺ مثل لحم الميتة.

ومعلوم أن لحم الميتة حرام أكله بنص الكتاب ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ...﴾ (المائدة/٣) ، وكان الرجل أحياناً يعمد إلى عرق في البعير

فيفصده- أي يقطعه- ويملاً به إناءً ثم يكويه حتى يلتئم، ثم يطبخ ذلك الدم ويأكله، ولاشك أنه يسبب أذى وضعفاً بالحيوان.

وفي هذا الإطار نهى النبي ﷺ عن وسم الحيوان في وجهه، والوسم أن يجعل في الحيوان سمة يعرف بها، حتى لا تختلط أموال الناس وتضيع وينهبها السراق... "فعن جابر أن النبي ﷺ مرَّ عليه بحمار قد وُسم في وجهه فقال: أما بلغكم أنني قد لعنت من وسم البهيمة في وجهها أو ضربها في وجهها؟ فنهى عن ذلك (٣٢).

إنه حمار قد كوي بالنار في وجهه سمة له، فلعن النبي ﷺ من فعل ذلك به، فأَيُّ دين هذا الذي يعطي هذه القيمة لحمار موسوم، لاشك أنه يقع في المقام الأول في حفظ حقوق الحيوان والرأفة به، والبديل الذي جعله النبي ﷺ هو الوسم في الأذن"، فعن أنس قال: دخلنا على رسول الله ﷺ مربداً وهو يسم غنماً، قال: أحسبه قال في آذانها" (٣٣)، ولا شك أن هذه هي الوسيلة المتاحة في ذلك الوقت، فإذا وجدت وسيلة أخرى اليوم تكون أكثر رأفة بالحيوان فيعمل بها للأحاديث الواردة في النهي عن إيذاء الحيوان.

٦- النهي عن التحريش بينها:

إذا كان النبي ﷺ نهى عن وسم الحيوان في وجهه، وعن اتخاذه غرضاً وقتله جوعاً وعطشاً... فمن الطبيعي أن ينهى النبي ﷺ عن التحريش بينها في مباريات للهو والعبث، يقوم بها الفارغون من الأوقات والأعمال أو الطالبون للأموال والألقاب الباحثون عن المتعة على حساب الحيوانات الضعيفة، عن ابن عباس قال: "نهى رسول الله ﷺ عن التحريش بين البهائم" (٣٤).

إن الذي يقوم به الأسبان من مصارعة الثيران وإطلاقها في الشوارع في أيام من السنة فنَقْل أو نُقْل، لهو أكبر دليل على أن مسألة الرفق بالحيوان التي يدَّعيها هؤلاء زيف ودعوى غير صحيحة...، وكذلك ما تقوم به الشعوب الأمريكية التي اعتادت على التحريش بين الديكة وإجراء المباريات في ذلك، وفي بعض البلاد بين الكباش والتيوس كل ذلك أدى واستغلال للحيوان بدون وجه حق، ولا يدل على الحضارة والمدينة بقدر ما يدل على الانحطاط والتخلف والوحشية.

لقد كان العرب يفعلون هذا الأمر فيأتون بكبشين أو ثورين يتناطحان حتى يهلكا أو يقاربا على الهلكة، وهم يفرجون ويضحكون، قال العلماء: وجه النهي عن التحريش أنه إهلاك للحيوانات واتعاب لها دون فائدة لمجرد العبث (٣٥).

٧- الإحسان للحيوان عند ذبحه وسلخه.

سبق أن ذكرنا أن الله ﷻ سخر الحيوان للإنسان يأكل بعضه ويركب بعضه ويستخدمه في سائر الأعمال ، وقد وجد بين الحين والآخر في بعض المجتمعات من ينكر عملية الذبح هذه ، بل ينكر فكرة أكل لحم الحيوان بحجة أنه مخلوق وجد ليعيش ، وكيف تُسَوَّل للإنسان نفسه أن يعتدي على حياة هذا الحيوان البريء فيزهقها لغرض إرضاء شهوة الأكل عنده ...، وهذا شاذ وغريب لأن جميع الشرائع السماوية والقوانين الأرضية التي تمثل الغالبية العظمى من أصحاب العقول السليمة قد اجتمعت على هذا الفعل الذي لا يتعارض مع العقل والفطرة لأن كل ما في الأرض إنما سخر للإنسان وخدمته بشكل أو بآخر.

لكن هذا الفعل وهو الذبح لا يعني تعذيب الحيوان وإلحاق الضرر به بحجة أنه سيموت في كل الأحوال، إن الإسلام أعطى أوامره المتعلقة بذبح الحيوان وإحلاله للإنسان بكل رأفة ورحمة ومن هذه الأوامر مايلي:-

(أ) ذكر اسم الله تعالى عند الذبح ليتذكر المسلم أنه يقوم بهذا الفعل بأمر الله سبحانه، وليس تسلطاً من نفسه، وإذا تعمد عدم التسمية فإن ذبيحته لا تؤكل، قال تعالى: ﴿وَكُلْ أُمّةً جَعَلْنَا مَنَسْكَاءَ لِّذِكْرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۚ﴾ (الحج/٣٤). والسر اللطيف في التسمية هو إعلان المسلم أنه إنما يذبح هذا الحيوان الذي يشترك مع الإنسان في الخلق والحياة، يذبحه بإذن الله سبحانه وليس تسلطاً عليه وعدواناً (٣٦).

(ب) الإحسان للحيوان بذبحه برفق دون عنف وذلك بأن يكون السكين حاداً حتى لا يتألم، وعدم إذنه ﷺ بالذبح بالظفر والسن هو من هذا القبيل.

قال ﷺ " إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتل وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة وليجد أحدكم شفرته وليرخ ذبيحته" (٣٧).

"والسر في هذه الذكاة- كما يلوح لنا- هو إزهاق روح الحيوان بأقصر طريق يريحه بغير تعذيب، لهذا اشترطت الآلة الحادة وهي أسرع أثراً، واشترط الذبح في الحلق وهو أقرب المواضع لمفارقة الحياة بسهولة، ونهي عن الذبح بالسن والظفر لأن الذبح بهما تعذيب للحيوان، ولا يقع بهما غالباً إلا الخنق" (٣٨).

وعن عائشة ؓ أن رسول الله ﷺ أمر بكبش أقرن يطأ في سواد- أي أقدامه سوداء- ويبرك في سواد- أي بطنه سوداء- وينظر

في سواد - أي ما حول عينيه أسود - فأُتي به ليضحي به، فقال لها: يا عائشة هَلُمِّي المُدْيَةَ، ثم قال: " اشحذِها بحجر ففعلت ... " (٣٩).

فهذا تطبيق من النبي ﷺ لذلك الأمر، فقد أمر النبي ﷺ بشحذ المُدْيَةِ، وهي السكين ومعنى شحذها أي سنّها لتكون حادة، وقال ﷺ " إذا ذبح أحدكم فلْيُجهز " (٤٠). أي فليكن حاداً ليفرغ من عملية الذبح بسرعة حتى لا يتعذب الحيوان.

ج) ونهى النبي ﷺ أن يَحْدَّ الرجل سيكِّنه أمام الشاة، بل عليه أن يُجهِّز عُدَّة الذبح قبل ذلك، ويُهَيِّئ المكان والوسائل المناسبة للتخفيف عن الحيوان، عن ابن عباس ؓ أن رجلاً أضجع شاة وهو يَحْدُّ شِفْرَتَهُ، فقال النبي ﷺ " أتريد أن تميّتها موتات؟ هلا أهددت شِفْرَتَكَ قبل أن تُضجعها " (٤١). ورأى عمر رجلاً يسحب شاة برجلها ليذبحها فقال له: ويلك قدّها إلى الموت قوداً جميلاً (٤٢).

وهكذا فإنه يجب على المسلم أن يسعى لإراحة الحيوان عند الذبح ما استطاع، وليعلم أن ذبحه لا يعني تعذيبه وإيذاؤه، ولكنه الوسيلة المثلى لإزهاق روحه بأسرع وقت وأقل ألم، وإخراج ما به من دم ومرض وفساد.

د) ويلحق بالإحسان إلى الذبيحة، الصيد فكذلك جعل له النبي ﷺ ضوابط تكفل للحيوان عدم التعذيب، فإذا كان الله سبحانه وتعالى ونبيه ﷺ قد بينا إباحة صيد الحيوان غير المقدور على إمساكه وذبحه، فأجاز الإسلام صيده بالآلة أو بالحيوان الجارح، فإنه في الوقت نفسه منع من إيذاء هذا الحيوان بأن اشترط أن تكون الآلة جارحة تخرق الجسد وتؤدي إلى سرعة الوفاة، وقد سأل عدي بن حاتم النبي ﷺ فقال " إني أرمي بالمعرّاض - وهو السهم الذي لا ريش عليه - الصيد فأصيبه،

قال: إذا رميت بالمعراض فخرق - أي نفذ في الجسد - فكل وما أصابه بعرضه فلا تأكل" (٤٣).

ويؤخذ من هذا الحديث أن النبي ﷺ لم يأذن بأكل ما لم يخترقه السلاح، وفي هذا دعوة للصائد أن يكون سلاحه حاداً يؤدي إلى الموت السريع للحيوان، بعكس ما يصيبه دون اختراق، ثم إن مثل هذا السلاح الذي لا يخترق الجسد غالباً ما يهرب الحيوان بعد إصابته به ثم يمرض ويموت دون أن يستفيد منه أحد، ولهذا نهى النبي ﷺ عن الصيد بالبندقية - وهي كرة تتخذ من الطين وبعد أن تجف يرمى بها الصيد - قال النبي ﷺ " لا تأكل من البندقية إلا ما ذكيت" (٤٤).

وهي بذلك غير البندقية المعروفة اليوم، فإن البندقية من السلاح الحاد الذي يجوز به الصيد لأن رصاصها يخترق الجسد أكثر من اختراق الرماح والنبال.

وعن عبدالله بن مغفل قال: نهى رسول الله ﷺ عن الخذف، والخذف الرمي بالحجارة وما شابهها - وقال ابن جعفر وهو أحد رواة الحديث: " إنه لا ينكأ عدواً ولا يقتل صيداً، ولكنه يكسر السن ويفقأ العين"، قال النووي في شرحه لهذا الحديث: " وفي هذا الحديث النهي عن الخذف لأنه لا مصلحة فيه ويخاف مفسدته ويلتحق به كل ما شاركه في هذا" (٤٥). وبهذا تتضح الصورة الجميلة التي رسمها الإسلام في هذا الموضوع وتظهر الرحمة والسماحة التي تمتع بها هذا الدين وطبقها نبيه ﷺ وصحابته الكرام.

٨- النهي عن قتل الحيوان وتعذيبه إذا لزم قتله.

لقد نهى الإسلام عن قتل الحيوان ظلماً وعدواناً أو لهواً وعبثاً، وقد تقدمت الأحاديث التي نهى فيها النبي ﷺ عن التحريش بين الحيوان أو اتخاذه غرضاً للرمي أو تجويعه

الرفق بالحيوان مظهر من مظاهر الحضارة والمدنية في الإسلام

وقد جاء النهي صراحة عن قتل كثير من الحيوانات، بل الحشرات لأنها مخلوقات وأمر تسبح الله تعالى ، منها ما رواه عبدالرحمن بن عثمان أن رسول الله ﷺ نهى عن قتل الضفادع (٤٦).

وعن ابن عمر قال (.... ورأى- أي النبي ﷺ قرية نمل قد حرقناها، فقال من حرق هذه؟ قلنا نحن، قال: إنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا رب النار" (٤٧).

فلا شك أن هذا القتل لهذه المخلوقات الضعيفة لا يرضاه الإسلام ولا يأمر به، لاسيما إذا كان فيه تعذيب للحيوان كحرقه بالنار مثلاً.

وهذا الفعل لا يرضاه الله سبحانه، فقد روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أن نملة قرصت نبياً من الأنبياء فأمر بقرية النمل فأحرقت، فأوحى الله إليه "أن قرصتك نملة أهلكت أمة من الأمم تسبح" (٤٨).

فهذه الحشرات الصغيرة لا يمكن أن يكون قرصها للإنسان سبباً في قتل قرية من النمل بكاملها، لاسيما إذا كان في سفر أو كانت بعيدة عن مكان سكن الإنسان وغير مؤذية له، كحديث ابن عمر السابق حيث كانوا في سفر فأنكر عليهم النبي ﷺ أن يقتلوا النمل ويحرقوه.

وإذا كان النبي ﷺ أمر بقتل بعض الحيوانات المؤذية والحشرات السامة فذلك لأنها تلحق الضرر بالإنسان كالحية وبعض الكلاب، فعن عبدالله بن عمر قال "سمعت رسول الله ﷺ يأمر بقتل الكلاب يقول" اقتلوا الحيات والكلاب، واقتلوا ذا الطفتين والأبتر فإنهما يلتمسان البصر ويسقطان الحبالى" (٤٩). وقد بين النبي ﷺ علة قتلها وهو ضررها الذي تلحقه بالإنسان، والفأر الذي يفسد المتاع وينقل الأمراض، وكذلك الأوزاغ وهي ما يسمى بسام أبرص، ويقال إنها تسبب البرص وتؤدي الإنسان.

وقد مر بنا قول النبي ﷺ " وَإِذَا قُتِلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ "

٩- الإذن بتربية الحيوان واقتنائه خارج البيت وداخله.

183

الرفق بالحيوان مظهر من مظاهر الحضارة والمدنية في الإسلام

ليست بنجس إنما هي من الطوافين عليكم" وقد رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ بفضلها (٤٩). فهذا الحديث دل على أمور منها:

أ- أن الهرة حيوان طاهر وسورها طاهر ، يجوز الوضوء منه أو شربه أو أكله.

ب- جواز اقتناء هذا الحيوان داخل البيت أو دخوله وخروجه من البيت مثل ما حصل للسيدة عائشة ؓ وللرسول ﷺ.

ج- الإذن بتربيتها في البيت وشرب سورها يدل على احترام هذا الحيوان والرفق به وجواز العيش معه في مكان واحد. وهذا كله يدل على رفق الإسلام بهذا الحيوان واحترامه.

وهذا الذي أرادت السيدة عائشة ؓ بيانه في هذا الحديث ، قام به أيضاً صحابي آخر هو أبو قتادة ؓ فعن كبشة بنت كعب بن مالك ، وكانت تحت ابن أبي قتادة - أن أبا قتادة دخل عليها فسكبت له وضوءاً فجاءت هرة تشرب منه، فأصغى لها أبو قتادة الإناء حتى شربت قالت كبشة: فرآني أنظر فقال: أتعجبين يا ابنة أخي ؟ قلت: نعم قال: إن رسول الله ﷺ قال: "إنها ليست بنجس إنما هي من الطوافين عليكم أو الطوافات" (٥١).

المطلب الرابع

الرفق بالحيوان سبب لدخول الجنة والإساءة إليه سبب لدخول النار

إذا كان دخول الجنة والنجاة من النار هي أسمى غاية يسعى لها المسلم فلاشك أن الإسلام قد حقق أعظم إنجاز في الرفق بالحيوان والحفاظ على حقوقه وحمايته من كل ضرر أو أذى ؛ لأنه جعل الإحسان إليه سبباً لدخول الجنة، والإساءة إليه سبباً لدخول النار.

يطالعنا في القسم الأول الحديث المشهور الذي رواه أبوهريرة أن رسول الله ﷺ قال: "بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئراً فنزل فيها فشرب ثم خرج فإذا كلبٌ يلهث يأكل الثرى من شدة العطش فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني فنزل البئر فملأ خُفَه ثم أمسكه بفيه حتى رقى فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له" ؛ قالوا يا رسول الله: وإن لنا في هذه البهائم لأجراً؟ فقال: في كل كبد رطبة أجرٌ (٥٢). وفي رواية أبي داود "بينما كلب يطيف بركية - أي بئر قد كاد يقتله العطش إذا بَغَى من بغايا بني إسرائيل فنزعت موقها - فاستقت له، فسقته إياه فغفر لها به" (٥٣). لقد غفر الله سبحانه لهذا الرجل، ولهذه المرأة البَغِيَّ التي اقترفت الكثير من الفواحش والآثام لأنها سقت هذا الحيوان ورحمته ورأفت بحاله، نعم إنها الحسنات التي تذهب السيئات، فالمسلم الذي بدر منه الخطأ وصدرت منه الذنوب التي هي من طبيعة ابن آدم جعل الله له وسيلة لتكفير هذه الذنوب والسيئات، إنها التوبة والاستغفار وفعل الخير والرحمة بخلق الله سبحانه وما أكثر طرق الخير وأسبابه، والتي من بينها هذه الوسيلة وهي الإحسان للحيوان ورحمته والرفقة به. أما الإساءة للحيوان فهي سبب لغضب الله ولعنته ودخول النار عقوبة على هذا الفعل الذي لا يرضاه الله سبحانه، وقد تقدم حديث النبي ﷺ الذي ذكر فيه أن امرأة عذبت بسبب هرة سجنتها حتى ماتت، لأنها حالت بينها وبين حريتها وحقها في الحياة ...

وكذلك غضب النبي ﷺ لمن وسم حماراً في وجهه، ولعنه، واللعن الدعاء بالطرد من رحمة الله، فأَيُّ منزلة للحيوان أعظم من منزلته في الإسلام حتى يلعن بسببه المسلم إذا وسمه في وجهه أو ضربه في وجهه.

وقد ورد أن النبي ﷺ عاقب من سبّت ناقته بأن أمر بأخذ ما عليها من متاع ثم تسريحها ... فعن عمران بن حصين قال: بينما رسول الله ﷺ في بعض أسفاره وامرأة من الأنصار على ناقه فضجرت فلعنّتها، فسمع ذلك رسول الله ﷺ فقال: " خذوا ما عليها ودعوها فإنها ملعونة".

قال عمران فكأنني أراها الآن تمشي في الناس ما يعرض لها أحد (٥٤). لعل هذه العقوبة لأن الإسلام ينهى عن السبّ والشتّم عموماً، ولكن فيها أن الإسلام لم ينة عن الأذى المادي بالحيوان فقط، بل ارتقى به إلى النهي عن أيّ أذى معنوي يلحقه كالسب والشتّم والدعاء باللعنة عليه.

المطلب الخامس

تحريم قتل الحيوان في الحرم

(أول محمية طبيعية في العالم)

لعل من الفخر لنا نحن المسلمين أن نعلم أن الإسلام يعتبر أول من أنشأ محمية طبيعية في العالم يحافظ فيها على البيئة نباتها وحيوانها، ونقصد بذلك أن الإسلام يعتبر منطقة الحرم وهي مكة وما حولها والمدينة وما حولها بمسافات معروفة أرض أمن لا يقتل فيها الحيوان ولا يؤذى ولا يكسر بيضه ولا يؤخذ... والحرم المكي كان من بداية بناء البيت في عهد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ثم أقرّه الله تعالى وبقي حراماً إلى يوم القيامة، والحرم المدني حرّمه النبي ﷺ لكنه رأفة بأمتة لم يجعل فدية على الذي يقتل الحيوان فيه أو يأخذ من نباته.

لقد جاءت العديد من الآيات والأحاديث تؤكد على هذا الحكم كقوله تعالى: ﴿أَحَلَّ لَكُم صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرماً وَتَقَوُا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾. [المائدة/٩٦].

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّداً فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ هَدْياً بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكَ صِيَاماً لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَفَا سَلَفٌ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾. [المائدة/٩٥].

وقول النبي عن المدينة: " ما بين لا بتيها حرام" (٥٥).

وهي من الأمور المعروفة المجمع عليها في الحج والعمرة، فالحرم الشريف ليس آمناً للناس فقط كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾. [البقرة/١٢٥]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نَتَّخِطُّفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْكَمْ نُمِكنَ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجَبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِن لَّدُنَّا وَلَكِنْ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾. [القصص/٥٧]، وقوله تعالى: ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّنْ جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾. [قريش/٤].

بل هو كذلك آمن وسلام لسائر المخلوقات، قال - صلى الله عليه وسلم - " إلا إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا - إلا إن مكة أحلت لي ساعة من نهار ولم تحل لأحد قبلي ولا تحل لأحد بعدي" (٥٦).

وبناء على هذه الحرمة حدد العلماء مقدار الهدى الذي يعطيه المحرم إذا قتل حيواناً أو طيراً أو كسر بيضاً في الحرم ...

الرفق بالحيوان مظهر من مظاهر الحضارة والمدينة في الإسلام

إن الإسلام دين الاعتدال والوسطية فهو يأذن للناس بذبح الحيوان للانتفاع بلحمه، فهو من نعم الله على الناس، لكنه في نفس الوقت ينهى عن الإسراف والتبذير في ذلك، ينهى أن يكون الصيد أو الذبح أو القتل للحيوان لمجرد اللهو والعبث، ويقوم كذلك بإجراءات احترازية للحفاظ على الثروة الحيوانية، فمن أحكام الأضحية أن يكون كبشاً إقتداء بالنبي ﷺ ومعلوم أن ذبح الكباش لا يؤثر على الثروة الحيوانية لأن الذي يفيد في عملية تكاثر الأغنام وغيرها من الحيوانات هو توفر الإناث أما الذكور فيكفي الفحل الواحد لمجموعة كبيرة من الحيوانات ..

وكان النبي ﷺ يحث أصحابه على المحافظة على الأنثى من الحيوان كقوله ﷺ لأحد الصحابة وقد عزم على أن يذبح لهم "إياك والخلوب" (٥٧)، وفي رواية الحاكم: "إياك واللبن، اذبح لنا عناقاً" (٥٨)، فإن كان لابد من الذبح فليحافظ المسلم قدر الإمكان على ثروته الحيوانية فيتقي ذبح الإناث التي يطمع أن تلد، لاسيما إذا كانت مرضعة لكي يحافظ على أبنائها الصغار.

وهذا الحديث يرشدنا من جهة أخرى إلى مدى رحمة النبي ﷺ ورأفته بالحيوان لاسيما الصغير، فمنه أن تذبح أمه الخلوب، وهذا فيه رعاية لحق الصغير في الحياة التي لا تنهيا له إلا بالرضاعة من أمه؛ عن علي عليه السلام أن النبي ﷺ "تهى عن ذبح ذوات الدّر" (٥٩).

الخاتمة وأهم النتائج :

بعد هذه الجولة السريعة والمختصرة بين آيات القرآن الكريم وأحاديث النبي ﷺ التي اعتنت بالرفق بالحيوان والإحسان إليه أخلص إلى جملة من النتائج المهمة؛ بعضها تم إلقاء الضوء عليه من خلال هذا البحث، وبعضها تم إظهاره وإيرازه للدارسين لهذا الموضوع، أو للشرعية الإسلامية وما فيها من مظاهر للحضارة والمدنية، وهذه النتائج هي:-

١- الرفق والإحسان عموماً، وبالحيوان على وجه الخصوص مظهر من مظاهر المدنية والحضارة في الإسلام، اعتنى به هذا الدين وأكد عليه مراراً وتكراراً.

٢- اتخذ هذا الدين العديد من الخطوات لترسيخ فكرة الرفق بالحيوان وتطبيقها على أرض الواقع، منها التأكيد على ضرورة إطعامها وسقيها، وعدم تكليفها من العمل ما لا تستطيع، وعدم التفريق بينها وبين أبنائها وصغارها، والنهي عن إيذائها وتعذيبها أو سملها في وجهها، أو التحريش بينها، أو قتلها، كما أذن في نفس الوقت بتربية الحيوان، واقتنائه خارج البيت وداخله.

٣- بلغ من عناية الإسلام بالرفق بالحيوان أن جعل الإحسان إليه والرفقة به سبباً لدخول الجنة، والإساءة إليه سبباً لدخول النار.

٤- من أهم ما سبق إليه الدين الإسلامي في هذا الموضوع أنه أول من أقام محمية طبيعية، وذلك بتحريم الصيد في الحرم المكي والمدني، وكذلك تحريم الصيد على المحرم بالحج أو العمرة، سواء كان داخل الحرم أو خارجه، وهذا ما لم يسبق إليه الإسلام.

الرفق بالحيوان مظهر من مظاهر الحضارة فكر وإبداع والمدنية في الإسلام

٥- قام النبي ﷺ ومن بعده صحابته رضي الله عنهم بتطبيق مبادئ الرفق بالحيوان، ليكون قدوة لغيره من الناس، وينقل النظرية إلى الواقع والأفكار إلى تطبيقات، فكان الحيوان ينعم بالرفق والإحسان في ظل هذا الدين بعدما نعم به الإنسان وعاش هائناً في ظله.

التوصيات :

- ١- ضرورة الاهتمام بهذا الموضوع إعلامياً، ودعوة الناس إلى تطبيقه، وإبراز الفوائد التي توجد في الحيوانات بسائر أنواعها وأشكالها، وما تحدثه من توازن في الطبيعة.
 - ٢- ضرورة الإكثار من المحميات الطبيعية لحماية الحيوانات من الانقراض وإنقاذها من حصار المباني والمزارع لها.
 - ٣- ترشيد المزارعين عند استعمال المبيدات الحشرية حتى لا تكون سبباً في موت وفناء وانقراض الطيور والحيوانات النافعة.
 - ٤- منع الصيد الجائر في البر والبحر على حد سواء، كالصيد بالمتفجرات في البحار، الذي يقتل كافة المخلوقات البحرية ويدمر الحياة في البحار.
 - ٥- التشجيع على إقامة الجمعيات التي تعتني بالرفق بالحيوان عموماً وتتنوعها بحيث يعتني البعض بحماية الحيوانات البرية، وأخرى بحماية الطيور، وبعضها للحيوانات الأليفة والداجنة، وبعضها للحيوانات البحرية....
- وهكذا حتى يتم اقتسام هذه الأعباء الكبيرة التي تتوء بحملها جمعية أو هيئة واحدة.
- ولعل هذه النقطة الأخيرة هي أهم ما ينبغي إنجازه في هذا المجال لأنه بإنشاء هذه الجمعيات تتوفر كل الأمور الأخرى، وتجد الحيوانات القلوب الرحيمة لترأف بها والآذان المصغية لا ستغاثتها، والأصوات المجاهرة التي تنادي بحمايتها.

وعن طريق هذه الجمعيات يتوفر الطعام والشراب والجمي والملجأ، والأدوية، والأبحاث والدراسات، والاتصالات مع الجمعيات والهيئات العالمية، وضم الجهود والتآزر من أجل إنجاح هذا العمل.

وأختم بحثي كما بدأته بالحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، سائلاً الله تعالى أن ينفع به ويجعله في موازين الحسنات إنه قريب مجيب .

الهوامش

- (١) عجز بيت شعر لزهير بن أبي سلمى. انظر ديوان زهير ، دار صادر ، بيروت ، ص ٨٨.
- (٢) تاج اللغة وصحاح الغربية ، الجوهري ١٤٨٢/٤ ، باب القاف ، فصل الراء مادة (رفق).
- (٣) رواه مسلم في صحيحة ، ٦٨/١٣ ، وأبو داود ١١١٢/٢ رقم ٢٥٦٩.
- (٤) رواه مسلم في ح/ ٢٥٩٢ ، وانظر رياض الصالحين ، ص ١٩٩.
- (٥) رواه مسلم في ح/ ٢٥٩٤ ، وانظر رياض الصالحين ، ص ١٩٨.
- (٦) رواه مسلم في صحيحة ١٤٧/١٦.
- (٧) البيت لامرئ القيس ، انظر ديوانه ، ط / دار صادر ، بيروت ، ص ٥٢.
- (٨) البيت لعنترة بن شداد، انظر ديوانه، ط/ دار صادر، بيروت، ص ٣٠.
- (٩) أخبار الأذكىء، أبو الفرج بن الجوزي، دراسة د. عز الدين منصور، دار افرأ، طرابلس ليبيا، ص ١١٩.
- (١٠) ديوان أمريء القيس، ص ١٧٩.
- (١١) سنن ابن ماجه ٣٠٢/٣.
- (١٢) رواه مسلم ٢٤٠/١٤.
- (١٣) تقدم تخريجه، هامش (٣).
- (١٤) انظر الصحاح ٦٦٣/٢، باب الراء، فصل الذال مادة (ذفر).
- (١٥) رواه أبو داود ١١١٠/٢ رقم ٢٥٤٩.
- (١٦) رواه الدارمي ٢٣/١.

الفرق بالحيوان مظهر من مظاهر الحضارة
فكر وإبداع
والمدينة في الإسلام

- (١٧) رواه الدارمي ٢٥/١.
- (١٨) الإيمان والحياة، د.يوسف القرضاوي، ط٤، مكتبة وهبة، القاهرة، ص٢٨٦.
- (١٩) رواه الدارمي ١٢٥/٢.
- (٢٠) رواه مسلم ١٥٦/١٥، والترمذي في سننه ٤٣٤/٥ رقم ٣٦٧٧.
- (٢١) رواه أبوداود ١١٠٤/٢ رقم (٢٥٤٨).
- (٢٢) رياض الصالحين، الإمام النووي، ص٢٧١، حديث رقم ٩٧٥، والحديث رواه أبوداود بإسناد على شرط مسلم.
- (٢٣) رواه مسلم ٦٨/١٧.
- (٢٤) رواه أبوداود ١١٥٩/٢ رقم ٢٦٧٥.
- (٢٥) أبوداود ١٣٥٠/٣ رقم ٣٠٨٩.
- (٢٦) رواه الدارمي ١١٥/٢ والنسائي ١٥٢/٤ رقم ٤٣٦٠.
- (٢٧) رواه أبوداود ٢١٠٤/٤ رقم ٤٩٤٠.
- (٢٨) رواه مسلم ١٠٧/١٣ وأبوداود ١٢٢٨/٣ رقم ٢٨١٦، والنسائي ١٩٥/٤ رقم ٤٩٥١.
- (٢٩) النسائي رقم ٤٩٥١.
- (٤٠) رواه ابن ماجه ٢١٨١١.
- (٤١) رواه الحاكم ، ٢٦٠/٤ ، ح: ٧٥٧٠ ، كتاب الذبائح ، وقال صحيح على شرط البخاري.
- (٤٢) رواه عبد الرزاق في مصنفه ١٣٨١٢.
- (٤٣) رواه البخاري ، فتح الباري ، ٦٠٤/٩ ، ح: ٥٤١٧ ، كتاب الذبائح والصيد.

- (٤٤) جاء في البخاري "تهى النبي ﷺ عن الخذف والبندقية ، ٦٠٧/٩ ،
 ح: ٥٤٧٩ ، وح : ٥٤٧٦ ، كتاب الذبائح والصيد".
- (٤٥) صحيح مسلم بشرح النووي ١٠٥/١٣ .
- (٤٦) رواه الدارمي ١١٥٩/٢ رقم ٢٦٧٥ .
- (٤٧) رواه أبوداود ١١٥٩/٢ رقم ٢٦٧٥ .
- (٤٨) رواه مسلم ٢٤٠/١٤ ، والنسائي ١٥٧/٤ رقم ٤٣٦٩ ، وأبوداود
 ٢٢٣٦/٤ رقم ٥٢٦٦ .
- (٤٩) رواه مسلم ٢٣٦/١٤ والترمذي ٤٨٨/٣ رقم ١٤٨٢ .
- (٥٠) رواه أبوداود ٤٤/١ رقم ٧٦ .
- (٥١) رواه الدارمي ٢٠٤/١ .
- (٥٢) رواه مسلم ٢٤١/١٤ .
- (٥٣) رواه أبوداود ١١٠٥/٢ رقم ٢٥٥٠ .
- (٥٤) رواه مسلم ١٤٦/١٦ والدارمي ٣٧٤/٢ .
- (٥٥) رواه مسلم ، ١٠٠٠/٢ .
- (٥٦) رواه مسلم ٢٧١٢ .
- (٥٧) رواه مسلم ٢١٤/١٣ .
- (٥٨) رواه الحاكم ٢٦١/٤ ، ح: ٧٥٧٦ ، كتاب الذبائح .
- (٥٩) رواه الحاكم ٢٦١/٤ ، ح: ٧٥٧٧ ، كتاب الذبائح .